الكتابة سبيل للوجود

إلى أخي الكبير عدنان حطيط

فاديا حطيط

اكتبي... فعل أمر يأتيني منه دافئًا كفعل رجاء.

لماذا لا تكتبين؟...سؤال بسيط أسمعه منه سؤالًا وجوديًّا.

ما بين فعل الأمر الذي يرجو والسؤال الذي يؤسس، أمضيت حياتي لاهثة وراء كينونة تستجيب لآماله. منذ أن كنت طفلة، قلت فليكن وجودي كله مرهونًا برضاه. كنت واثقة من أن ما يريده لي هو عين الخير، تمامًا مثل أمي وأبي ولكني كنت أحدس أنه يعرف أكثر منهما كيف يفتح الطريق أمامي.

هو أخي الكبير. هكذا كان دائمًا. حين كنت طفلة في بداية وعيي وحين تخطيت الخمسين من عمري. والأخ الكبير في عائلة كبيرة سرعان ما يصبح أبًا. كنت الوسطى من عائلة مؤلفة من أبوين وثمانية أبناء، سبعة شبان وأنا بينهم فتاة وحيدة رأوها جميلة فكانت سعيدة كأميرة الحكايات.

في بيت صغير مؤلف من غرفتين، كنا نعيش عشرة أشخاص وفيما بعد عاشت معنا ابنة عمة يتيمة. نمد الفرش مساءً فتغطي أرض الغرفتين، نحن الأربعة الصغار وابنة عمتنا ننام في غرفة فيها سرير واحد ينام عليه والدانا، وفي الغرفة الأخرى ينام إخوتي الشبان الأربعة الكبار. وفي كل صباح ستكون هناك لعبة المصارعة فيما بينهم. يتصارعون ويتضاحكون ونحن الصغار نصفق لهم، من يربح؟ من سيقول «أبندونو» قبل الآخر؟

في بيت صغير، مع أب يعمل موظفًا في مرفأ بيروت. هو الابن البكر في عائلة من ستة أشخاص، توفيت والدته وهو صغير، فانطلق على سجيته، محبًّا لنفسه، مع ميل غريب ليكون مختلفًا. يعرف بعض الأجنبية ويعتز بذلك. لديه بعض الكتابات المنشورة التي يتكلم عنها مرارًا. يقف طويلًا أمام المرآة واضعًا الكريم على شعره المطوي على تجعدات متناسقة والعطر يفوح منه. في طفولتي لم أعرف أن الكريم والعطور إشارة توق للانفلات من الزوجة والأبناء، وإشارة إلى نرجسية غير ملائمة لأب عائلة من أحد عشر شخصًا. أذكر حين كانت أمي تكلفني

بطلب مصروف البيت بالنيابة عنها تفاديًا للشجار الحتمي معه، كنت أجلس في حضنه، ويحيطني بذراعيه، وأرى أمامه علبة سجائر بيضاء مربَعة الشكل مكتوب عليها «جوكي كلوب»، ويهمس لي أن هناك اثنين في لبنان يدخنانها، هو ورئيس الجمهورية. أنا كنت واثقة من أن أبي هو أغنى وأجمل من رئيس الجمهورية.

أمي، التي كلّما كبرت صرت أكثر شبهًا بها، كنت، لسذاجتي، أظن أنها امرأة حديدية. كانت تأمرنا وكان علينا أن نطيع. امرأة الأوامر كنت أراها. تقوم بتسجيلنا في المدرسة، وإن هربنا من المدرسة كما فعلنا مرة أنا وأخي الأصغر، تضعنا في مدرسة أخرى. تطبخ على عجلة طعامًا في طنجرة كبيرة وتلاحق شؤوننا واحدًا بعد آخر. تحب ابنها الكبير وتقول إنه إن وضعته في كفة فإنه سيوازي إخوته السبعة الآخرين في الكفة الأخرى. أنا الصغيرة لم يكن الأمر يزعلني، لأني أيضًا كنت أرى أن لا أحد يوازي أخي الكبير. أمي مغلوبة على أمرها مع رجل يقف طويلًا أمام المرآة، ويقتطع حصة كبيرة من راتبه الشهري الضئيل لنفسه، ومع أفواه تريد أن تأكل وأبناء عليهم أن يكبروا، كان عليها عبء كل ذلك. تسمّع الدرس، وهي غير متعلمة، لابنها الثاني الذي تكتشف أنه لم يكن يفقه شيئًا مما كان يتعلمه بل يعيد غيبًا ما كان قد سمعه، وتلاحق الخيَاطة لكي تنجز لابنتها فستانًا مشكوكًا بالخرز يصعب على فتيات الحي أن يكون لديهن مثله، وتعطي الأمر بتغيير البيت واستئجار آخر واسع وكبير ما إن يعمل ابنها الكبير ويصير لديه راتب شهري.

أستطيع أن أصف الكثير من تفاصيل بيتنا العتيق، خصوصًا اللعبتين الكبيرتين اللتين كانتا تقريبًا توازيان قامتي، موضوعتين كزينة على الدرسوار، صحيح أني لم أكن ألعب بهما ولكني كنت أعتبرهما مصدر فخر لي واختلاف عن بنات الحي. يمكنني أن أقف عند الكثير من التفاصيل أيضًا. مشهد الحمام وأنا صغيرة تصب أمي الماء الساخن على رأسي والصابون يغطي وجهي، وتعليماتها لي بأن أدعو لأخوتي مع كل سكبة ماء (الله يخليلي خيي عدنان، الله يخليلي خيي حسين...) وقد ظللت زمنًا طويلًا أفعل ذلك حتى وإن صار الدوش بديلًا عن الطاسة.

يتزاحم الكثير من التفاصيل في رأسي، ولكن اختصارًا يمكن لمن يقرأ الروايات أن يقدر كيف تكون البيوت الصغيرة التي يعيش فيها عشرة أشخاص وابنة عمة مع أب يحب ذاته وينظر كثيرًا إلى المرآة ويمضي جل وقته خارج البيت، ومع أم غير متعلمة كان عليها دائمًا أن تؤجل طلباتها وأن تحتمل نزوات زوج نرجسي ولكنها تحبه وتحب أولادها. في تلك الروايات كان من الصعب لمثل تلك الأسر أن تكون سعيدة، إذ إن الخلافات والمشادات اليومية ونقص المال وغياب الأب، سيجعل الأبناء متفلتين في الحياة من غير حبل قوي يشدهم غير حبل السرة الوهمي. وتلك الروايات يمكن أيضًا أن تقول لنا إن الفتاة التي تعيش في وهم الثراء

والسعادة في تلك الأسرة الفقيرة، كان ينبغي أن تتزوج رجلًا ثريًّا لتحقق ما حلمت به. ولكن الروائيين حتى وإن عرفوا الكثير فهم لا يعرفون كل شيء.

بيتنا العتيق في الضاحية الجنوبية كان يشبه البيوت في روايات البيوت الفقيرة في الأوساط المهمشة التي تعيش في ضواحي المدن. في كل تلك الروايات كان ثمة بطل. في بيتنا، من كان البطل؟ هل كان ثمة بطل أصلًا؟ هل كان ثمة بطولة في بيت فيه ابن مخطوف وأم ماتت من الحسرة عليه وفيه أخ مات بإصابة في الحرب، وأب بعدما عاش عمره الرغيد مات مثقلًا بخسارة ابنه الثاني الأثير لديه، وفيه أيضًا، يموت أخيرًا الأخ الكبير. أية بطولة هي تلك؟

مع ذلك فإني الآن سأتجاوز حيرتي وأعطي البطولة لأخي الكبير. كبير البيت، والابن البكر لامرأة عليها تدبير كل أمور عائلتها وأب يحب نفسه. لن يصعب علينا أن نحزر أنه كان طبق الأصل عن أبيه في وسامته، وطبق الاصل عن أمه في تحمله المسؤولية. ولن يصعب علينا تعرّف الآمال التي وضعتها أمه فيه والطموح الذي رسمه لنفسه تعويضًا لها. هنا، في هذه النقطة تحديدًا، وإذا ما تركت لنفسي أن أصف أخي الكبير، يمكنني أن أكتب صفحات، أستطيع أن أصف وسامته، ويمكنني أن أصور أيضًا مسامات جلده وشكل يديه وأصابعه التي كنت لا أملُّ من تأملها ومسكها وتمرير أصابعي عليها، كما كنت لا أملُّ من النظر إلى تقاسيم وجهه الصبوح محاولة تسجيل أصغرها بينما أنا جالسة إلى جانبه وهو على فراش الموت... ولكن قبل ذلك عليَّ أن أكبر معه على مهل.

كان في السادسة عشرة من عمره تقريبًا، عندما كان طالبًا في ثانوية العاملية رأى نفسه صحافيًّا. كانت رؤيته تلك حقيقية إلى درجة أنه أرسل رسالة إلى كامل مروة صاحب جريدة الحياة يومها (أي في الستينيات) وسأله ماذا عليه أن يفعل لكي يصبح صحافيًّا. ويقينًا أن البوسطجي كان يعرف أن بعض الرسائل تكون مرساة نجاة تحمل من لجة البحر إلى أمان البر، لذا لم يتأخر في الوصول إلى بيتنا ويسلمنا رسالة جوابية. أخي قرأ الرسالة وعرف كيف سيكون صحافيًّا، ونحن التابعون له عرفنا كيف يكون طعم الطموح. نراقبه ونحلم معه. أخذ يكتب ويمزق ما يكتب، قائلًا لنفسه، إنه سوف يصبح كاتبًا حين لن تطاوعه يداه في تمزيق ما كتبه. اشترى آلة دكتيلو لأن الصحافيين عليهم أن يطبعوا كتاباتهم، وكلنا في البيت تعلمنا منه الطباعة على تلك الآلة. تابع على التلفزيون برنامجًا لتعليم اللغة الإنكليزية لأن الصحافيين عليهم أن يلموا باللغات، وفي وقت بث الحلقة كانت أمي تمنعنا من التفوه بكلمة. اشترى طقمًا وكرافات وكنا لا نشبع من التطلع إليه حين كان يرتديهما تحضيرًا لمقابلة مع شخصية مشهورة سيقوم بها. في أثناء ذلك، سافر إلى مصر لينجز شهادة التوجيهية. هناك، تعرف إلى صبية اسمها غادة فأحببناها معه. هناك، أحب عبد الناصر، وأحببناه معه. هناك، دفع لي ولأخي رسوم الاشتراك في مجلتي ميكي وسمير. وكان البوسطجي إياه، الذي لا يتأخر عن تسليم الرسائل الآتية كإشارات سماوية، يأتيني كل أسبوع بمغلف مكتوب عليه عبارة

«الآنسة فادية حطيط المحترمة» التي، مع اللعبتين الكبيرتين والفستان المشكوك بالخرز، جعلتني الأكثر عزة في العالم.

ولأنه أخ كبير، وضع لنفسه هدف انتشال أخوته من «الهامشية» (يا لهذه الكلمة!). حاول أن يعطي كل واحد شيئًا ما يقبض عليه. قال لأخيه الأصغر أنت ستكون صحافيًّا آخر، وقال للآخر أنت ستكون متميزًا في مجال صف الأحرف، وقال للثالث أنت ستكون قادرًا على العمل في مجال الطباعة. أما أخته التي كانت قد بدأت تخطو خطوات صباها الأولى مع بداية عمله في الصحافة ورآها تكبر مع حلمه، فأمسكها بيدها وأخذ يدلها على دروب جديدة. اقرئي، كان يقول لها، وهي كانت تحب أن تقرأ ما صار يكتبه أسبوعيًّا. تعلمي فأنت قادرة، وهي كانت تنظر إليه وتثق بنفسها. أخذها إلى مكاتب عمله في جريدة الصياد، عرَّفها على أناس جميلين أنيقين، وكأنما ليقول لها إن هناك أناسًا مختلفين عمن تعرفينهم في بيتك الصغير. أخذها إلى السينما. اشترى لها الكتب. قال لها اقرئي وإذا ما وجدتِ خطأً في ما تقرأين أقدم لك هدية. صارت تقرأ وتحب أن تنجح لأجله. ثم صارت تكتب لأنه كان يحب أن تكتب. يقرأ ويعلق، إيجابًا أو سلبًا، ولكنه كان يحب أن تكتب. اكتبي، لماذا لا تكتبين؟ عبارة ستظل ترن في أذنها.

ما الذي يجعل الكتابة هدفًا قائمًا بذاته؟ لماذا تصبح الكتابة بديلًا عن ثروة وعن مكانة وعن ضيق وعن عجز وعن غضب من أب يستطيع ولا يفعل وقهر على أم تفعل ولا تستطيع؟ أي سحر للكلمات المطبوعة تجعل صاحبها يظن نفسه ملكًا وإن كان معدمًا؟ أتساءل ويأتيني الجواب واضحًا كعين الشمس. ليس لمن كان يقاوم التهميش إلَّا أن يعمل على تسجيل حضور باهر، وأقصر الطرق أمام الفقراء هي لغتهم وكلماتهم، إذ لا فارق بين الغني والفقير في الكتابة. حين تكتب تختصر المسافة بين الناس، ليس ذلك ما يحصل حين تعمل في السياسة أو في التجارة أو في الوظيفة. الكتابة أقصر الطرق لكي تكون موجودًا وحقيقيًّا ومستقلًّا ومساويًا لا بل متخطيًا من كان يقف في مرتبه أعلى. الكتابة تجعلك موجودًا بفخر وتحميك من معركة التنافس على أشياء يصعب الوصول إليها.

أخي الكبير عشق اللغة العربية وعشق الحروف المطبوعة. رأى باكرًا أن أمله بغيرهما ضئيل. نزل إلى البحر تعلم السباحة فيه ورمى لنا الحبل، نزلنا نحن أخوته أيضًا وسبحنا كل حسب إمكاناته وقدراته. وها نحن نمد الحبل نفسه إلى أبنائنا، علَّهم يسبحون في البحر نفسه. إذ لا طموح يرقى إلى طموح الكتابة.

وحتى اليوم ما زلت حين أقرأ ما يكتبه أولادي أو أولاد إخوتي في فترات متقطعة من نصوص بلغة عربية فصحى، تعود إليَّ مشاعر العزة إياها. وكلما اتصلت ابنتي من الخارج أسمع نفسي أقول: اكتبي لماذا لا تكتبين؟